

## **الفصل الخامس**

### **الأسلوب الخطابي**



## المبحث الأول

### أسلوب الخطبة وأسلوب المقال

يتدرج العمل الفني في ثلاثة ادوار هي :

- أ. الابداع - والمراد بالابداع هو التفكير لاستنباط المعاني .
- ب. التنسيق - والمراد بالتنسيق أي تنظيم المعاني وترتيبها .
- ج. التعبير - أما التعبير فهو أبرز هذه المعاني بأسلوب ملائم لها، وللسامعين والمتكلم:

١- ملائم لها، لان الموضوعات تختلف، فالخطبة الحربية تلائمها الكلمات القوية الحماسية، والصور الخيالية، والخطبة القضائية يوائمها الاسلوب المتزن، وخطبة التأبين يشاكلها الاسلوب المتفجع وهكذا.

٢- ملائم للسامعين، فيتألف الخطيب في خطبته للخاصة ويعدل الى السذاجة مع العامة، ويطنب في الجمع المستكثر المستزيد، ويوجز في الجمع المؤثر للاقلال وهكذا .

٣- ملائم لحال الخطيب نفسه من بهجة أو أسى، ومن غضب أو رضا، ومن انتقام أو رحمة. والكتابة والخطابة تشتركان في الابداع، والتنسيق، ولكنهما تختلفان في التعبير، لأن تعبير الخطيب خاضع لخواقه، وما يدعو إليه المقام من تقصير الجمل أو تطويلها، ومن تكرار أو إيماء وانتقاء للالفاظ الموسيقية الخفيفة على السمع، او التحليق في سماء الخيال حيناً، وإيثار النكتة حيناً آخر مع الاشارة، والحركة ونبرات الصوت، ونفوذ الخطيب وغيرها مما يتطلبه فن الخطابة ثم لا بد في اسلوب الخطبة من الوضوح والسهولة. أما تعبير الكاتب فقيه ترو وتأنق وتصعيب احياناً، لان للقراء فسحة من الوقت يفكرون فيها في معنى ما استغلق، ويكررون تلاوته. فلا ضير أن يصعب الكاتب ويعمل ويحلل، أما الخطيب فإنه يقذف بكلماته فيتلقاها الجمع بسرعة لا تيسر له مراجعتها او التوقف لفهما، لانه مضطر الى متابعة الخطيب وتلقف ما يقول فإذا توقف للفهم انقطعت صلته

بالخطيب، فضاعت قيمة الخطبة، وكثيراً ما ينزل التعبير الخطابي عن مكانة التعبير الكتابي في جودة المبنى ودقة المعنى، ولكنه يستعيض عن هذا النزول مؤثرات أُخر من فصاحة النطق، وجهارة الصوت، واجادة الاداء، وروعة الموقف. ولهذا فإن بعض الخطب مسموعة ذات أثر قوي عميق في نفوس سامعيها ولكنها مقروءة لاشيء من الامتياز فيها. والكلمات هي اللبّات التي يبني منها الاديب عمله الفني، فهي كالذهان في فرجون الرسام، وللآليء في أنامل اللال، والأحجار في يد البناء والصخور في محفر النحات، والألحان في بنان الموسيقار. والاديب يستطيع بمواهبه وسعة حيلته أن يصنع منها صوراً عدة تمثل العواطف المختلفة تمثيلاً كاملاً، وذلك برصفيها وتأليفها في أسلوب خاص، فإن المفردات التي لا ينتظمها أسلوب لا أثر لها في النفس، وانما يبين أثرها اذا ما صيغت لتصور عاطفة أو تعبر عن فكرة فمثلاً بعض الألفاظ فخم رائع يمثل الأنفة والكبرياء مثل الشمم والإباء والعزة، وبعضها ذو دوي يمثل قصف الرعد، وهزيم الريح، وزحف الجند مثل الهجوم، والغضب، والانتقام وبعضها دمث لين يمثل الاحلام والنسيم العليل والمناجاة مثل الرضا، والصفح، والرحمة ..، وبعضها قارص لاذع، وبعضها مستعطف أسر، وبعضها يتقد حماساً وهكذا. والخطيب والاديب عامة يتخير الالفاظ المعبرة عن عاطفته وينتظمها في نسق ملائم للمقام، قال الجاحظ في قوله تعالى ﴿وقيل يا ارض ابلعي ماءك، ويا سماء اقلعي، وغيض الماء، وقضي الامر، واستوت على الجودي﴾، وقيل بعدا للقوم الظالمين<sup>(١)</sup> أنه اشتمل على الحسن والطلاوة والرونق والمائية التي لا يقدر البشر على الاتيان بمثلها ولا يستطيع افصح الناس مضاهاتها، على ان الفاظها المفردة كثيرة الاستعمال، دائرة على الالسنه، فقوة التركيب، وحسن السبك هو الذي ظهر فيه الاعجاز .

(١) سورة هود آية رقم (٤٤) .

## قيمة الأسلوب الخطابي

ليست البلاغة<sup>(١)</sup> ان تفهم المعنى فحسب، والا لتساوت الركاكة والتعبير والاشارة، والجيد والرديء، والعامي والفصيح، وانما البلاغة رتبة فوق افهام المعنى، رتبة سمكها الامتياز في التعبير، ومطابقتها للحال، وان يضيفي الخطيب من اسلوب على معانيه حلة من نور، ليتسنى للسامعين ان يتملوا معه جمال رؤاه، وبراعة خياله، وان يُهدد قلوبهم او يرح عواطفهم بعبارات موسيقية تخدر فيهم حاسة النقد، وتسكرهم، ثم تأتي كلمة فاصلة منتظمة مدعومة احيانا بنبرة في الصوت او ضربة على المنبر، فتوقظ تلك النفوس من غيبوبتها. قال الجاحظ (ومتى شاكل ابقاك الله - ذلك اللفظ معناه ، واعرب عن فحواه وكان لتلك الحال وفقاً، ولذلك القدر لققا وخرج من سماجة الاستكراه، وسلم من فساد التكلف كان قميناً بحسن الموقع، وبانتفاع المستمع، وأجدر ان يمنع جانبه من تناول الطاعنين، ويحمي عرضه من اعراض العيابين، والا تزال القلوب به معمورة والصدور مأهولة، وحتى كان اللفظ ايضا كريما في نفسه، متحيزا من جنسه، وكان سليما من الفضول بريئا من التعقيد، حُبب الى النفوس، واتصل بالاذهان والتحم بالعقول، وهشت اليه الاسماع، وارتاحت له القلوب، وخف على السن الرواة. وشاع في الافاق ذكره، وعظم في الناس خطره، وصار ذلك مادة للعالم الرئيس ورياضة للمتعلم الرِيض. فإن اراد صاحب الكلام صلاح شأن العامة ومصلحة حال الخاصة وكان يعم ولا يخص، وينصح ولا يغش، وكان مشغوبا بأهل الجماعة، شَنَفاً<sup>(٢)</sup> لأهل الاختلاف والفرقة جمعت له الحظوظ من اقطارها، وسيقت اليه القلوب بأزمَمَها، وجمعت النفوس المختلفة الاهواء على محبته، وجلبت على تصويب ارادته ومن اعاره الله من معونته نصيبا، وافرغ عليه من محبته ذنوباً<sup>(٣)</sup> جلبت اليه المعاني، وسلس له نظام اللفظ، فكان قد أغنى المستمع من

(١) ينظر: الدكتور محمد أحمد الحوفي، فن الخطابة، ص ٤٨ - ٤٩.

(٢) شَنَفَا بمعنى مبعضا . ينظر: أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص ٣٨٤

(٣) الذنوب بمعنى الدلو الملقى . ينظر: م . ن ، ص ٢٢٤.

كد التكلف و اراح قارئ الكتاب من علاج التفهم، ولم اجد في خطب السلف الطيب والاعراب والاقحاح الالفاظ مسخوطة، ولا معاني مدخولة، ولا طبعا رديًا، ولا قولاً مُستكرها، واكثر ما نجد في خطب المولدين البلديين المتكلفين ومن اهل الصنعة المتأدبين، وسواء كان ذلك منهم على جهة الارتجال والاقْتضاب او كان من نتاج التعبير والتفكير<sup>(١)</sup> فالجاحظ يدعو الى مشاكلة اللفظ للمعنى وللموضوع وللمقام والى بعده من التكلف، والى تخيره. لتقبله النفوس. وليسلم من الذمة وليس الاسلوب الغني هو التعبير الصحيح عن الفكرة. فان قولنا بغداد عاصمة العراق (العشرة عَشْر مائة) و(الضوء اسرع من الصوت) هذه تعابير صحيحة عن الفكرة، ولكنها ليست اساليب ادبية، انما الاسلوب الادبي هو التعبير الصحيح عن فكرة تدفعه عاطفة، فيه شخصية الاديب وخصائص وهذا ما حدا ببعض النقاد الى ان يقولوا: الاسلوب هو الاديب أو الاسلوب هو الرجل نفسه، ولكن النقاد قد اختلفوا منذ زمن بعيد في الاصل الذي يرجع اليه جمال الادب وجلاله، اهو الاسلوب ام المعنى ام هما معا؟

وانقسموا في ذلك الى فرق ثلاث :

١. انتصر فريق للألفاظ والاساليب، وردوا اليها البلاغة وذهب بعضهم الى ان المعاني شائعة مباحة لجميع الناس، فلا شأن لها في البلاغة، بل الشأن في العبارة.

وممن ذهب هذا المذهب ابو هلال العسكري في قوله: (وليس الشأن في ايراد المعاني، لان المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي، وانما هو في جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقائه، وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السبك والتركيب، والخلو من أود النظم والتأليف، وليس يطلب من المعنى الا ان يكون صواباً..... ومن الدليل على ان مدار البلاغة على تحسين اللفظ ان الخطب الرائعة والاشعار الرائقة، عملت لافهام المعاني فقط لأن الرديء من الالفاظ يقوم

(١) ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين ص ص ٧٢-٧٠ .

مقام الجيد منها في الافهام وانما يدل على حسن الكلام، واحكام صنعته، ورونق الفاظه وجودة مطالعه، وحسن مقاطعه، ويديع مبادئه، وغريب معانيه، على فضل قائله وفهم منشئة واكثر هذه الاوصاف ترجع الى الالفاظ دون المعاني، ولهذا تأنق الكاتب في الرسالة، والخطيب في الخطبة، والشاعر في القصيدة يببالغون في تجويدها، ويغنون في ترتيبها، ليدلوا على براعتهم وحثقهم ببضاعتهم ولو كان الامر في المعاني ل طرحوا اكثر ذلك فربحوا كذا كثيراً، واسقطوا عن انفسهم تعباً طويلاً.

وتبعه ابن رشيق فنقل في كتابه العمدة واكثر الناس على تفضيل اللفظ على المعنى، سمعت بعض الحذاق يقول: قال العلماء: اللفظ اغلى من المعنى ثمناً، واعظم قيمه واعز مطلباً، فان المعاني موجودة في طباع الناس.

يستوي الجاهل فيها والحاذق، ولكن العمل على جودة الالفاظ، وحسن السبك، وصحة التأليف، ألا ترى لو ان رجلاً اراد في المدح تشبيه رجل لما اخطأ ان يشبهه في الجود بالغيث والبحر، وفي الاقدام بالاسد وفي المضاء بالسيف، وفي العزم بالسيل، وفي الحسن بالشمس، فان لم يحسن تركيب هذه المعاني في احسن حلاها في اللفظ الجيد الجامع للرقّة والجزالة والعذوبة والطلاوة والسهولة والحلاوة لم يكن للمعنى قدر واندفع أنصار اللفظ الى دعوى اخرى مبنية على دعواهم الاولى هي ان الجدير بنسبه المعنى اليه من يحسن التبيين عنه وان كان طريقه من قبله فقال ابو هلال العسكري<sup>(١)</sup> (ولكن عليهم اذا اخذوها ان يكسوها ألقاظاً من عندهم، ويبرزوها في معارض من تئيفهم، فاذا فعلوا ذلك فهم احق بهم ممن سبقهم اليها، وسمعت ما قيل ان من اخذ معنى بلفظه كان له سارقاً ومن اخذه فكساه لفظاً من عنده اجود من الفاظه كان اولى به ممن تقدمه، أرى من التعسف ان يحفلوا بالاسلوب وحده ، لان تأثرنا بالنص الادبي لا ينشأ عن الالفاظ أصواتاً مسموعة، وحروفاً مفردة، وكلمات

---

(١) ينظر : العسكري ، ابو الهلال (ت ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م ) كتاب الصناعيين ، تحقيق : علي

بيجارى ومحمد ابو الفضل، دار احياء الكتاب ( مصر ١٩٥٢ م ) ، ص ١٨٦ .

مجردة وانما ينشأ عن الالفاظ والمعاني من التناسق والملائمة، وعن مشاكلة الكلمة لجارتها، ومواءمة المعنى لما قبله ولما بعده، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال التي يقتضيها الموضوع ونفسية القائل والسامع، والدليل على ان الكلمة تروقنا في موضع وتثقل في موضع اخر فمثلا خطب الامام علي عليه السلام وقد اغار النعمان بن بشير<sup>(١)</sup> علي عين التمر وامر الامام للناس ان ينهضوا اليه فتناقلوا فقال (دعوتكم الى نصر اخوانكم فجررتم جرجرة الجمل الأسرّ وتناقلتم تتناقل النضو الادبر) ثم خرج الى منكم جنيد متذائب ضعيف كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون<sup>(٢)</sup>

فكلمة (جرجرتم) ملائمة تمام الملائمة للحال التي قيلت فيها، لان الجرجرة صوت يردده البعير في حنجرته، وأكثر ما يكون ذلك عند التعب والاعياء وهم قد تشاقلوا وتضجروا وانتحلوا المعاذير في اصوات غامضة مبهمه، فصاروا كالجمال التي تجرجر وهي مصابة بداء السّرر. ولكن الكلمة نفسها ثقيلة في مثل هذا الموضوع: قرأ الامام فجرجر المصلون وراءه. على أن نعت الأسلوب بالجزالة، أو الرقة أو الوضوح أو الرنين وما شاكلها ليس على حقيقته فهذه صفات المعاني، لان المعنى الفخم له لفظ جزل، والمعنى الواضح في ذهن الاديب له اللفظ الواضح الذي لا غموض فيه، ولهذا قال عبد القاهر الجرجاني: فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام

(١) النعمان بن بشير: هو النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة الخزرجي الانصاري ابو عبد الله امير ، خطيب شاعر ، من اجلاء الصحابة من اهل المدينة ولي القضاء بدمشق ثم اصبح واليا على حمص في زمن معاوية بايع لابن الزبير ثم قتل يوم مرج راهط قال سماك بن حرب: كان من اخطب ما سمعت وهو الذي تنسب اليه معرة النعمان (ينظر: ابن الاثير، اسد الغابة في معرفة الصحابة، ج٥، ص٢٢ ، ابن حجر ، تهذيب التهذيب ج ١٠ ص٤٤٧).

(٢) ينظر: ابن ابي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ج ١ ص٤٦ ، الجرجرة صوت البعير ، والاسر أي المصاب في زوره والنضو الادبر بمعنى المهزول المصاب بجروح . ينظر: أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص٩٩

يستحسن شعرا أو يستجيد نثرا، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ فيقول: حلو رشيق وحسن أنيق، وعذب سائغ وخلوب رائع، فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع الى أجراس الحروف والى ظاهر الوضع اللغوي، بل إلى أمر يقع من المرء في فؤاده، وفضل يفتحه العقل من زنده<sup>(١)</sup> ثم إن الألفاظ هي التي يملكها الجميع، ويستطيعون أن يمتلكوها وان يحصلوها من الكتب والدواوين والمعاجم والافواه، أما المعاني فهي التي تحتاج الى كد وعناء وتفكير واطلاع وبراعة وابتداع ومقدرة خاصة على التعبير عنها وتصويرها تصويرا فنيا ولهذا اختلفت المعاني تبعا للذكاء والثقافة والبيئة والسن والتجربة والهبة. ومن قرأ دواوين الحكماء ليستفيد المعاني فهو على سبيل الصواب ومن نظر فيهما ليستفيد الالفاظ فهو على سبيل الخطأ والخسران هاهنا في وزن الريح هناك، لأن من كانت غايته انتزاع الالفاظ حمله الحرص عليها والاستهتار بها الى ان يستعملها قبل وقتها ويضعها في غير مكانها وشر البلغاء من هيا رسم المعنى قبل ان يهيء المعنى عشقا لذلك اللفظ وشغفا بذلك الاسم حتى صار يجر اليه المعنى جرا ويلزقه به لزقا، كأن الله تعالى لم يخلق لذلك المعنى اسما غيره، وضعه الافصاح عنه الا به. يقول ابن رشيق: (اللفظ جسم وروحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه ويقوى بقوته فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهجنة عليه، كما يعرض لبعض الاجسام من العرج والشلل والعمور وما أشبه ذلك من غير أن تذهب الروح وكذلك اذا ضعف المعنى وأختل بعضه كان اللفظ من ذلك أوفر حظ، كالذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح، ولا تجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ وجربه فيه على غير الواجب قياسا على ما قدمت من أدوار الجسوم والارواح، فإذا اختل المعنى كله وفسد بقي اللفظ مواتا لا فائدة فيه، وإن كان حسن الطلاوة في السمع كما ان الميت لم

(١) ينظر: الجرجاني، ابو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت ٤٧١هـ / ١٠٧٨م) أسرار البلاغة

ينقص من شخصه شيء في رأي العين الا انه لا ينتفع به، ولا يفيد فائدة، وكذلك إن اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى، لانا لا نجد روحا في غير جسم البتة) وابن وكيع مثل المعنى بالصورة واللفظ بالكسوة ورأى ان الصورة الحسنة ان لم تقابل بما يشاكلها ويليق بها من اللباس فقد بخست حقها وتضاءلت في عين مبصرها، أما الجرجاني فيقرر في كتابيه اسرار البلاغة، ودلائل الاعجاز مرارا أن البلاغة ترجع إلى الملاءمة بين اللفظ والمعنى وتكوين الفاظ على وفق المعاني وما تتطلبه من أسلوب خاص ونسق في ابرازها. ومن التعسف حقا أن يتحاكم بعض النقاد الى اللفظ وحده، وبعضهم الى المعنى وحده وإذا فإن من الصواب النظر إلى الأسلوب والمعنى على أنهما وحدة لا تتجزأ لأن سر البلاغة يرجع إلى روعة المعنى وسموه وتأثيره وطرافته، والى جزالة اللفظ وقوته أو رفته وفصاحته، فليس النص معنى منفصلا عن اللفظ وليس لفظا منفصلا عن المعنى بل هو مزيج من عناصر عدة، مزيج من الفكرة والعاطفة والخيال والتعبير. ويتبين اتحاد المعنى والأسلوب في أننا إذا غيرنا التعبير تغير المعنى وإذا غيرنا المعنى تغير التعبير، فقولنا لم يحضر الطلاب كلهم غير قولنا كل الطلاب لم يحضروا، وقوله تعالى ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾<sup>(١)</sup> غير نعبدك ونستعينك، وقد أحسن العتابي في تشبيه الالفاظ بالاجساد والمعاني بالارواح فإذا قدمت من الالفاظ مؤخرا او اخرت منها مقدما افسدت الصورة، وغيرت المعنى، كما لو جمل رأس الى موضع يد، أو يد إلى موضع رجل لتحولت الخلقة وتغيرت الحلية<sup>(٢)</sup>

(١) سورة الفاتحة آية رقم (٥).

(٢) ينظر : ابو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين، ص ١٥٣ .

## المبحث الثاني خصائص الأسلوب الخطابي

اسلوب الخطابة مستمد من طبيعة هذا الفن الذي يجمع بين الاقناع والاستمالة ، فهو اسلوب متمزج فيه الادلة التي تكفل الاقناع بالاثارة التي تحقق الاستمالة، لابد ان يكون مُنوعاً جامعاً تقرير الحقائق واثارة العواطف، يتجه الى الفكر والى الوجدان لينفذ منها الى العزيمة ولذلك تسمى الخطابة الفن العملي، كما تسمى الفن الكامل لجمعه في الالتقاء - بين شخصيتي الخطيب الحسية والمعنوية، ولاستخدامه جميع المواهب للسامعين، فإن الخطيب يستخدم جسمه في الخطابة، فيشير بيديه، ويحرك جسمه ورأسه ويشكل اسارير وجهه، وكل هذه الحركات عنصر هام في التأثير الخطابي، حتى اذا قرئت الخطبة مكتوبة كانت فاقدة هذا العنصر الجسماني، مع صوت الخطيب، وحسن القائه، فيذهب شيء من روحها وقوتها الانشائية<sup>(١)</sup> ويتسم الأسلوب الخطابي بالخصائص التالية :-

١. الإطناب : يتسم الأسلوب الخطابي بالإطناب، وإذا كان الإطناب غير محمود في الأسلوب الكتابي أو العلمي، فإنه محمود في الأسلوب الخطابي، وهو ضروري في الخطابة السياسية والقضائية والحفلية، ولكنه غير مستطاع في الخطابة الحربية، لأنها كلمات محمسة تلقى في الميدان قبيل المعركة، فظروفاً تحتم الإنجاز، وقد يضطر الخطيب الديني إلى الإيجاز مراعاة لحالة الجماعة والزمن، كأن يكون المسجد غاصاً بالمصلين في يوم قائف، أو يكون المصلون من نوي الأعمال العاجلة، وقد تركوها ريثما يصلون، ولكن هذا لا ينفي أن من خصائص الأسلوب الخطابي الإطناب، لان الإيجاز إنما تقتضيه ظروف وأحوال، فعلى الخطيب ان يراعى للمقام وما يقتضيه من إيجاز أو إطناب فإن استدعى إطناباً

(١) ينظر: الشايب ، أحمد ، الاسلوب الخطابي ، ص ٩٤ .

وتفصيلاً أطنب، وان تطلب تقصيراً أوجز، على ان يطيل في غير خطل ولا إملال ويوجز في غير تعمية ولا إخلال. وقديما كان للعرب خطب طوال، وخطب قصار يقول الجاحظ (ثم أعلم إن جميع خطب العرب من أهل البدو والحضر والمدن والويز على ضربين منها الطوال، ومنها القصار، ولكل ذلك مكان يليق به، وموضع يحسن فيه) <sup>(١)</sup> ولكن على الخطيب المطنب ان يكون دائم السيطرة على الجمهور لأنه لا يأمن ملالهم وان نسق عباراته، ونضد معانيه، وأبدع في تصويره بتسويقه ومفاجأته وحسن القائه، فإن أحس منهم فتوراً ألهب عواطفهم او أوجز قال عبد الله بن مسعود <sup>(٢)</sup> (حدث الناس ما حدجوك بأسماعهم، ولحظوك بأبصارهم، فأذا رأيت منهم فترة فأمسك) وهناك وسائل للاطناب منها

أ- التكرار المعنوي: وهو التعبير عن المعنى الواحد بطرق مختلفة، ليتضح ويقوى تأثيره ولا عيب في هذا التكرار المعنوي إذا ما تغايرت عباراته، مثل قول الحجاج بن يوسف الثقفي: (أيها الناس من أعياه داؤه، فعندي دواؤه ومن استطال أجله، فعلي ان أعجله، ومن نَقَلَ عليه رأسه، وضعت عنه ثقله، ومن استطال ماضي عمره قصرت عليه باقيه ..) فهي كلها بمعنى واحد ولكن التعبير مختلف، فكان لكل جملة معنى جديداً وتهديداً ووعيداً. ولهذا اخالف الجاحظ في ايثاره الايجاز في الخطب اذ يقول (ووجدنا عود القصار اكثر، ورواة العلم الى حفظها

(١) ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٣ ص ٦.

(٢) عبد الله بن مسعود: هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي ابو عبد الرحمن، صحابي جليل وهو من أهل مكة وهو أول من جهر بالقرآن بمكة ومن حفظة القرآن واجودهم قراءة وحفظاً وهو خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم له في الصحيحين ٨٤٨ حديثاً واورد الجاحظ في كتابه البيان والتبيين خطبة له توفي عن عمر نحو ٦٠ عاما في المدينة المنورة، ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٢ ص ٥٦، ابو نعيم الاصبهاني، حلية الاولياء وفيه بعض خطبه، ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج ١ ص ١٥٤.

اسرع) (١) وروي ان ابن السماك جعل يتكلم وجارية له تسمع فلما انصرف اليها قال لها (كيف سمعت كلامي، قالت: ما أحسنه لولا انك تكثر ترداده. قال ارده حتى يفهمه من لم يفهمه قالت: الى ان يفهمه من لم يفهمه قد مله من فهمه) (٢) لأن التكرار نوع من الايحاء ولا بد منه في الخطابة.

ب- ومن وسائله ايضا التفصيل والشرح وتوليد المعاني ليعمق أثر الخطبة في نفوس سامعيها وهذا ما نراه واضحا وجليا في الخطب السياسية والإطناب بنوعيه هو تكرار معنوي وقد يكون تفصيل للجمل وشرح لها وتوليد للمعاني ليعمق الخطيب المتمكن والمتألق في النفوس أثرها .

٢. الوضوح : وكذلك نجد الاسلوب الخطابي يتسم بسهولة العبارة ، ووضوح المعنى لان فهم المعاني أساس الإقناع والاستمالة ولا أعني أن يكون الكلام مبتذلا سوقيا، وشائعا شعبيا، وإنما أريد أن يكون سهلا في قوة، وساميا في وضوح وسهولة، يفهمه أنصاف المتعلمين ولكنهم يعجزون عن الاتيان بمتله، أريد ان يوافق السامعين ويلائم الزمان، وبشاكل البيئة، وبوائم الموضوع وينبىء عن مقدرة الخطيب البيانية، والخطيب البارع من خطب في العامة، وانصاف المتعلمين فرفعهم اليه ولم يهبط هو اليهم. ومن الخطأ أن يعزب الخطيب في اسلوبه ويتسامى في تعبيره تساميا يغلق معانية على السامعين ذكر الجاحظ أن ابا دؤاد بن حريز قال - وقد جرى ذكر شيء من الخطب وتحيير الكلام واقتضابه وصعوبة ذلك المقام واحواله (تخليص المعاني رفق، والاستعانة بالغريب عجز، والتشادق من غير أهل البادية بغض) وقال (رأس الخطابة الطبع، وعمودها الذرية، وجناحها رواية الكلام، وحليها الاعراب "الافصاح" وبهاؤها تخير اللفظ، والمحبة مقرونة بقلّة الاستكراه) (٣) ذلك ان الغريب والتعقيد

(١) ينظر : الجاحظ ، البيان والتبيين ج ٣ ص ٦ .

(٢) ينظر : م . ن ، ج ١ ص ٩٩ .

(٣) ينظر : الجاحظ ، م . ن ، ج ١ ص ٤٤ : تخليص المعاني ، أي شرحها وتوضيحها وتقريبها .

لا يلائم السامعين، ويحوجهم الى التفكير في المعنى، والتأويل للعبارات ، فتتقطع صلتهم بالخطبة والخطيب (فاختر من المعاني ما لم يكن مستوراً باللفظ المعقد، مُغزّياً في الاكثار من التكلف فما اكثر من لا يحفل باستهلاك المعنى مع براعة اللفظ وغموضه على السامع) (١) ومما يحجب السهولة إلى الخطباء أن الكلمات السهلة أحفل في كثير من الأحيان بالشعور والعاطفة من الكلمات الغريبة التي لا تحصل إلا بالمطالعة والمدارسة، فمثلاً كلمة حرب أو غارة أو جوع تثير ما لا تثيره كلمة وغي أو سغب، وكلمة زوجة أقوى تأثيراً من كلمة حنة أو طله. والجنوح إلى السهولة لا ينافي قوة العبارة ودقتها وذلك كقول الحجاج في خطبته بالبصرة: (أيها الناس من اعياه داؤه فعندي دواؤه، ومن استطال اجله فعلي ان أعجله ان للشيطان طيفاً، وللسلطان سيفاً) فالاسلوب هنا واضح المفردات والمعاني وجيد غاية الجودة، وواف بالغرض الذي يريده الخطيب وهو التهديد والوعيد .

وهناك وسائل للوضوح هي (٢) :

١. ان يكون الخطيب قد درس موضوعه وفهمه فهماً عميقاً دقيقاً لأنه يستطيع أن يعبر عنه تعبيراً جلياً مفهوماً، فيتجنب الغموض والإبهام والتعبير المحتمل للمعنيين، ولاشك ان الغموض في الأسلوب مرده إلى أحد امرين: إما إلى غموض المعنى في ذهن الخطيب، وإما إلى عجزه عن الإقصاد عما بذهنه وكلاهما عيب.
٢. اختيار الكلمات التي تتناسب الموضوع وللسامعين، بحيث تدل على معانيها في يسر وسهولة ودقة، وتتدفق الى الذهن والعقل والقلب كما رأينا في خطبة الامام عليه السلام والحجاج وزیاد.
٣. حسن عرض الجمل وتأليفها ، لتفصح العبارة عن المعنى الذي يقصد اليه

(١) ينظر : الجاحظ ، رسالة مدح التجار ص ٤٥٩ .

(٢) ينظر: الدكتور أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة، ص ص ١٨٠-١٨١.

الخطيب، فيقدم أو يؤخر، ويذكر أو يحذف، ويؤكد أو لا يؤكد ويفصل أو يصل، وذلك ليكون معناه واضحا دقيقا وعدة الخطيب في ذلك ان يلتزم القواعد النحوية والبلاغية والذوق الادبي.

٤. ترتيب الموضوع ترتيبا منطقيا ، فالمقدمات تسلم الى النتائج والمعاني الاساسية قبل المعاني الفرعية، والمعاني كلها مترابطة متماسكة لا فجوات بينها تقطع افكار السامعين .

٥. ولابد في الخطب العامة من البعد عن المصطلحات الخاصة بالعلوم والفنون، لانها مجهولة للسامعين، ولأنها لا تلائم الموضوع. لهذا عابوا على بعض الخطباء من علماء الكلام أنهم استعملوا في خطاباتهم بعض مصطلحاتهم، خطب بعضهم فقال (إن الله عز وجل بعد أن انشأ الخلق وسواهم ومكن لهم ولا مثالهم فتلاشوا) فضحكوا منه.

وخطب آخر في وسط دار الخلافة فقال (وأخرجهم الله من باب اللئسية فأدخله في باب الايسية) وقال مرة اخرى: (فدل على ساتره على غامره، ودل غامره على مُنحله) فكاد ابراهيم بن السندي وهو من المتكلمين والخطيب ليس من المتكلمين - ينشق غيظاً<sup>(١)</sup> من هذا الذي يستعمل في خطبة اصطلاحات لا بأسلوب الخطبة.

٣. إثارة الشعور

الاسلوب الخطابي في حاجة إلى إثارة الشعور، لأن الوضوح وحده لا يكفي ، ذلك أن الوضوح يكفل الاقناع، أما قوة الاسلوب فتكفل الاستمالة وتوجيه السامعين إلى الهدف الذي يقصده الخطيب. وهذه القوة هي التي تمزج مشاعر السامعين بمشاعر الخطيب لذلك قال احد المتكلمين ان الذي يكتفي بالاقناع دون التحميس متكلم لا بليغ اما وسائل الاثارة فهي كيف يثير الخطيب المشاعر؟

(١) ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين ، ج ١ ص ١٤٠. اللبسيه في اصطلاح المتكلمين يراد بها النفسي ، واما الايسيه يراد بها الاثبات.

أ. يثيرها بقوة عاطفته، وحماسته إلى دعوته، لان الخطيب المنفعل الصادق العاطفة، الحار الشعور، تلتهب كلماته وتصل إلى القلوب عباراته فسرعان ما تمتزج نفوس السامعين بنفسه، وتتدفع إلى الوجهة التي يريدها، سمع الحسن البصري خطيبا يعظ، ولكن قلب الحسن لم يرق لخطبته، فقال له يا هذا ان بقلبك لشراً أو بقلبي<sup>(١)</sup>.

ب. ومن وسائل الاثارة الخيال في العبارة، وذلك باختيار المفردات والعبارات التي تثير في النفوس اخيلة وذكريات وتبعث صوراً وأفكاراً ملائمة للموضوع تتداعى وتتوافد وسبيل ذلك أن يتخير الخطيب العبارات المجازية كالاستعارة والكناية والتمثيل ، ويجنح الى التشبيه والتخييل والمبالغة المقبولة ، وبهذا يكسب في عبارته قوة وحضارة، لأن الحياة تسرى في العبارة على مقدار غناها بالمشاعر الحية، والعواطف المشبوبة والصور الذهنية ققولنا (أي ضلع في المثلث أقصر من مجموع الضلعين الآخرين) تعبير وجيز المبنى، صحيح المعنى، دقيق الدلالة ولكن ليس من الأدب في شيء، لان معناه عقلي صرف خال من شعور القائل، فلا يثير شعور السامع (والكلمة عند الشاعر والاديب عامة لا تفسر بالعقل وحده لكنها تفسر كذلك بالقلب والخيال. فإذا ما ترددت لفظة في ذهنه كانت لها اثار في قرارة نفسه، لان معناها يسري فيه ، ويعيد اليه مناظر ماضيه وذكرياته فيسترجع العواطف التي اثارتها هذه الكلمات في نفوس الناس في شتى تجارب الحياة)<sup>(٢)</sup> والخطيب محتاج لخيال مشوق يصور عاطفته، على شرط ألا يكثر منه، وألا يسوقه على غرار واحد حتى لا يسأم، والجماعة تتأثر بصور كثيرة، ومتى كان الخطيب حاذقاً بليغاً اسكر الجميع بتصويره، فيثيره أو يهدئه ولو جمعت عظام من ذهبوا ضحية الألفاظ والجمال لأمكن أن يقام منها هرم ارفع من

(١) ينظر : الجاحظ ، البيان والتبين ، ج ١ ص ٨٤ .

(٢) ينظر: الدكتور أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة، ص ١٨٣

هرم خيوس القديم، وإنما تؤثر الألفاظ بما ترسمه في الذهن من صور وليس لتأثيرها ارتباط بمعانيها الحقيقية، بل يكثر أن تكون الالفاظ الأقوى تأثيراً هي الأقل دقة في وضوحها مثل مساواة، وحرية، وشرف، وعرض ولكن سلطانتها على النفوس عظيم. وللألفاظ وظيفة مهمة في التعبير تتجاوز ما يقتصر عليه بعضها من نقل فكرة شخص، فكثير منها مشحون بصور غير الفكرة التي تنقلها، فمثلاً كلمة (أم) تدل على معنى مجرد لوالدة مجردة فلا تهز شعور قارئ، ولا سامع ولكن اذا استخدمها إنسان في حياته الخاصة أحس لها في نفسه حياة وشعر أنها تتدفق بعاطفة، وتذكر بالطفولة وملاعبها، وبحب الأم وعطفها فاللفظ رمز الفكرة ومعنى، وتيار زاهر بالمشاعر والصور التي اكتسبها من حياته الطويلة واحوال الذين نطقوا بها، ولكن الالفاظ تتبدل معانيها على الزمن، فمنها ما كان غنيا بالصور ثم افتقر، ومنها ما تلازمه صورته فتتلوه على الأثر، ومنها ما تتغير معانيه بتغير البيئة والناس. فإذا اردنا أن تؤثر في الجمع كان لزاماً علينا أن نعرف فهمه لمعاني الالفاظ وقت الخطاب، فإن صورها حينئذ قد تغاير صورها من قبل، ولهذا يلجأ الساسة إلى تغيير بعض الأسماء الدالة على نظم معينة وان لم يغيروا النظم نفسها فسموا مثلاً الضرائب الشخصية ضرائب عقارية والمعونة ضرائب غير مقررة، وللألفاظ أعمار وأطوال، ومن الخطأ أن ينكب الأديب على معجمات اللغة يستظهر منها او يعكف على دواوين الشعر وأثار البلغاء، ليحفظ كلمات ويستعملها دون أن يتبصر فيما طرأ عليها من تحوير أو تغيير ولذلك من قرأ كتب البلغاء وتصفح دواوين الحكماء ليستفيد المعاني فهو على سبيل الصواب، ومن نظر فيها ليستفيد الالفاظ فهو على سبيل الخطأ، والخسران هاهنا في وزن الربح هناك، لأن من كانت غايته انتزاع الالفاظ حمله الحرص عليها والاستهتار بها الى أن يستعملها قبل وقتها ويضعها في غير مكانها، ولذلك قال بعض الشعراء لصاحبه أنا اشعر منك قال صاحبه:

ولم ذلك؟ قال: لأنني أقول البيت واخاه، وأنت تقول البيت وابن عمه<sup>(١)</sup>، ومن الذي يقرأ اليوم أو يسمع ان فلانا اشترى سيارة فيفهم أنه اشترى قافلة من الابل؟ أليس المعنى القديم للسيارة هو ذلك؟ ولقد يتحول اللفظ من معنى إلى نقيضه، فمثلا كلمة صُعلوك كانت تدل في الحياة الجاهلية على الفتى الشجاع المغوار السلاب الذي يقاسم الفقراء ما يسلب<sup>(٢)</sup> ولكنها دلت بعد ذلك على الحقيير الضعيف المستضعف. ومن امثلة ذلك قول أبي حمزة الخارجي في خطبته بالمدينة مدافعاً عن اتباعه (فمضى الشاب منهم فُماً - حتى التفت رجلاه عن عنق فرسه، واختضبت محاسن وجهه بالدماء وعقر جبينه بالثرى وانحطت عليه طير السماء وتمزقته سباع الارض، فطوبى لهم وحسن مآب، فكم من عين في منقار طائر طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله، وكم من يد قد ابينت عن ساعدها طالما اعتمد عليها صاحبها راعياً وساجداً وكم من وجه رقيق وجبين عتيق قد فُلقَ يعمد الحديد)<sup>(٣)</sup> فهذا تخيل مثير، وأي تخيل أقوى من تصويره أصحابه وقد عقر التراب جباههم، ونهشتهم السباع والنسور والتقطت الطيور عيونهم؟ وقد زاد هذا التصوير قوة بقوله ان هذه العيون طالما كانت تبكي من خشية الله وتقاه، وان هذه السواعد التي ابينت كانت تكأة لأصحابها في الصلاة. ومن وسائلها اختيار الكلمات القوية النفاذة إلى القلوب، في صدد الاثارة او التهديد أو التحميس من ذلك ما جاء في خطبة أبي جعفر المنصور<sup>(٤)</sup> بعد ان

(١) ينظر: الجاحظ ، رسالة مدح التجار ، ص ١٥٩ .

(٢) ينظر: الدكتور احمد محمد الحوفي ، الحياة الشعرية من الشعر الجاهلي ص ص ٢٩٩-٣٠٦ .

(٣) ينظر: ابن ابي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ج ١ ص ٢٥٩ .

(٤) ابو جعفر المنصور : هو عبد الله بن محمد بن علي ، ولد سنة ١٠٤هـ / ٧٢٢م ، وامه سلامة

البربرية بويغ بالخلافة في اليوم الذي توفي به أبو العباس السفاح سنة ١٣٦هـ وبني مدينة

بغداد سنة ١٤٥هـ توفي سنة ١٥٨هـ وهو ابن ٦٨ سنة ودفن ببئر ميمون ، ينظر : اليعقوبي

، تاريخ اليعقوبي ، ج ٢

ص ص ٢٥٤-٢٧٢ ، الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٩ ص ٥٤ . ابن كثير ، البداية

والنهاية ، ج ١٠ ص ١٢٤

قتل أبو مسلم الخراساني<sup>(١)</sup> (ان من نازعنا عُرْوَةَ هذا القميص أجزرناه خبيّ هذا الغمْد)<sup>(٢)</sup> فكلمة (اجزناه) أقوى من (قطعنا رأسه) مثلاً لأنها تذكر بذبح الجزار للماشية في سرعة وفي غير مبالاة بل في مسرة وانتظار للنفع، (وخبيّ هذا الغمْد) كناية عن السيف فيها تهويل، ومن ذلك أيضاً خطبة الإمام علي كرم الله وجهه لما علم أن النعمان بن بشير أغار من قبل معاوية على عين التمر ودعا عليّ عليه السلام الناس أن ينهضوا إليه فتأقلاوا (يا أهل الكوفة. كلما سمعتم بمنسّر من مناسر أهل الشام أظلمكم أنجر كل امرئ منكم في بيته وأغلق بابيه، أنجار الضنّت في حُجره، والضبُع في وِجارها... ماذا منيت به منكم، عمي لا تبصرون، وبكم لا تتطقون، وصم لا تسمعون، إنا لله وأنا إليه راجعون)<sup>(٣)</sup> فهو يحقرهم لأنهم يخافون من المنسر (عدد صغير من المحاربين) ويزيدهم تحقيراً بقوله (انجر... انجار الضب والضبع) وذلك يدل على سرعة الفرار الى المأوى، وعلى الرعب، وعلى حقارة الشأن.

ج. وكذلك اذا كان الخطيب يعمد إلى التأثير السريع فإن الجُمْل القصار أنسب لأنها سريعة الأداء، سريعة الفهم، متلاحقة الأثر، مثلها مثل الطرقات المتوالية على الحديد المُحمى، تؤثر فيه وتشكله، والمراد بالجمال القصار أن تكون وسطاً بين القصر والطول، لأن العبارات الطويلة بطيئة التأثير مملّة للسامع، مجهدّة للخطيب في إلقائها، والعبارات القصيرة المفرطة في القصر متلاحقة مفاجئة

(١) أبو مسلم الخراساني : هو عبد الرحمن بن مسلم ، مؤسس الدولة العباسية واحد كبار القادة ولد في ماه البصرة سنة ١٠٠هـ / ٧٧١م اتصل بابراهيم بن الامام محمد من بني العباس فكان داعيه بني العباس في خراسان قتله أبو جعفر المنصور برومة المدائن سنة ١٣٧هـ / ٧٧٥م ، ينظر : اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ص ص ٢٥٦-٢٥٧ ، الطبري ، تأريخ الرسل والملوك ، ج ٩ ص ١٥٩ . ابن خلكان، وفيات الاعيان ، ج ١ ص ٢٨٠ .

(٢) ينظر : الطبري، تأريخ الرسل والملوك ، ج ٩ ص ٣١٣ .

(٣) ينظر : الطبري، تأريخ الرسل والملوك ، ج ٦ ص ٧٧ .

مجهدة للسامع في تتبعها، من الجمل القصار قول زياد بن ابيه في خطبته بالبصرة (قربتم الغرابة، وواعدتم الدين، تعتذرون بغير العذر، وتعضون على المختلس، كل امرئ منكم يدب عن سفيهه، صنيع من لا يخاف عاقبه، او لا يرجو معادا وقد احدثتم احداثاً لم تكن، وقد احدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن غرق قوماً غرقناه، ومن احرق قوماً احرقناه، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه، ومن نبش قبراً دفناه حياً فيه)<sup>(١)</sup> .

د. والتشابه<sup>(٢)</sup> والتطابق لهما أثر عظيم في إثارة الشعور لان التماثل او التضاد يشعر بالفارق ويوضح المعنى ويفسح المجال للخيال. من التشابه قول زياد بن ابيه في خطبته السابقة (وقد احدثتم احداثاً لم تكن، وقد احدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن غرق قوماً غرقناه، ومن احرق قوماً احرقناه ، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه، ومن نبش قبراً دفناه حياً فيه) ففي هذا التهديد مشاكلة بين العقاب والجرم، وتخيل مفزع، وخاصة في تهديده بشق صدر اللص الذي ينقب البيوت، ويدفن لص المقابر حياً في المقبرة التي كان ينبشها. ومن التطابق قول الامام علي عليه السلام وقد اغار الضحاک بن قيس<sup>(٣)</sup> على الحيرة من قبل معاوية واستجدهم الامام علي رضي الله عنه فتقاعدوا (أيها الناس المجتمعة أبدانهم المختلفة أهواؤهم، كلامكم يوحي الصم الصلاب وفعلكم يطمع فيكم الاعداء، تقولون في المجالس كئيت وكئيت فإذا جاء القتال قلت حيدي حيا)<sup>(٤)</sup> هنا تطابق بين اجتماع

(١) ينظر : القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ١ ص ٢١٦ .

(٢) ينظر: الدكتور أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة، ص ١٨٩ - ١٩١ .

(٣) الضحاک بن قيس الفهري : هو ابو امية ، او ابو أنيس ، الضحاک بن قيس بن خالد الفهري القرشي سيد بني فهر في عصره ، شهد فتح دمشق ، وشهد صفين مع معاوية ولاء معاوية على الكوفة ثم نقله الى دمشق قتل في مرج راهط سنة ٦٥ هـ (ينظر : ابن قنفذ القسنطيني ، كتاب الوفيات ، ص ٧٥ ، الزركلي ، الاعلام ج ٣ ص ٣٠٩ )

(٤) ينظر : ابن ابي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ج ١ ص ١٥٢ .

الابدان واقتراق القلوب، وبين قوة كلامهم وضعف دفاعهم، وبين جرأتهم على الخوض فيما لا حق لهم فيه وجبنهم اذا جد الجد.

هـ. ومما يحقق للخطيب التأثير، وينفخ في أسلوبه حياة متجددة أن يراوح بين الأخبار والإنشاء، حتى لا يكون أسلوبه على وتيرة واحدة فيمل، وحتى يجد نشاط السامعين بهذه المغايرة، ويصور في دقة أحاسيسه ومشاعره، فإن المعاني المنوعة والانفعالات المختلفة في حاجة إلى أساليب متغايرة تفصح عنها. عليه أن يتخير الأسلوب الملائم للمعنى، من خبر وأمر، ونهي واستفهام وتعجب، لأنه بذلك يحقق ما سبق، ويحقق شيئاً آخر هو أن هذه المغايرة في الأسلوب، تستتبع مغايرة في نبرات الصوت وطريقة الالتقاء، والوقفة والإشارة، وهذا كله عون على الوضوح من ناحية وعلى التأثير من ناحية، من ذلك قول الامام علي عليه السلام في خطبة له (أصبحت والله لا أصدق قولكم ولا اطمع في نصركم، ولا اوعد العدو بكم، ما بالكم؟ ما دواؤكم؟ ما طبكم؟ القوم رجال أمثالكم اقول بغير علم؟ وغفلة من غير وروع؟ وطمعاً في غير حق)<sup>(١)</sup> فهنا أخبار بتكذيبه لهم ويأسه من نصرهم مع تعجب من حالهم، ثم دراية بهم، ثم تعجب وانكار لقولهم بغير علم وطمعهم في غير حق.

ومن ذلك قول أم الخير بنت الحريش تحرض جند علي يوم صفين (صبراً يا معشر المهاجرين والانصار، قاتلوا على بصيرة من ربكم وثبات من دينكم، فكأنى بكم غدا وقد لقيتم أنل الشام كحمر مستفورة، فرت من قسورة، لا ندري أين يسلك بها من فجاج الأرض، باعوا الآخرة بالدنيا واشتروا الضلالة بالهدى، وعما قليل ليصبحن نادمين)<sup>(٢)</sup>.

(١) ينظر: ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ١ ص ١٥٣.

(٢) ينظر: القاسمي، صبح الاعشى، ج ١ ص ٢٤٨.

من صفات الاسلوب الخطابي الرفيع ان يكون موسيقياً رناناً ليكون خفيفاً على اللسان، حسن الوقع في الأذان.

### وسائل الموسيقى

ولقد تساعد على موسيقى الاسلوب عدة عوامل منها<sup>(١)</sup> :

أ. انسجام الحروف وحلاوة جرسها وانتلاف الكلمات وتلاؤم فقرها وإيقاعها، فتطول الجملة وتقتصر طوعاً لحركة الفكر وحالة العاطفة.

فعاطفة السرور تقتضي الإبطاء، وعاطفة الغضب تقتضي الإسراع والتدفق وخطبة المحامي وهو يدلل ويطبق القانون غير خطبته وهو يستميل القضاة ويستدر اشفاقهم، وخطبته السياسية وهو يناقش نصوص معاهدة او برنامج حكومة غير خطبته وهو يستثير الجمع.

ب. ولهذا حلا السجع والازدواج في بعض الخطب مادام بريئاً من التكلف كما ترى كثيراً من ذلك من خطب الامام علي رضي الله عنه قال ابو هلال (لا يحسن منتور الكلام ولا يخلو حتى يكون مزدوجاً، ولا تكاد تجد البليغ كلاماً يخلو من الازدواج)<sup>(٢)</sup> وقال (واعلم ان الذي يلزمك في تأليف الرسائل والخطب هو ان تجعلها مزدوجة فقط، ولا يلزمك السجع فيها، فإن جعلتها مسجوعة كان أحسن، ما لم يكن في سجعك استكراه وتنافر وتعقيد) واذا كان السجع عفواً أو لاً أثر فيه للتكلف والتعمص، كان له وقع حلو في الاذن وسلطان على النفس (واعلم أن السجع لو كان عيباً لكان كلام الله معيباً لأنه مسجوع كله ذو فواصل وقرائن واكثر خطب الرسول محمد صلى الله عليه وسلم مسجوع كقوله "إن مع العز ذلاً، وان مع الحياة موتاً، وان مع الدنيا آخرة

(١) ينظر: الدكتور أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة، ص ١٩٣ - ١٩٥.

(٢) ينظر: ابو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص ٢٤٩.

وان لكل شيء حسابا، ولكل حسنة ثواباً، ولكل سيئة عقاباً) فأكثر هذا الكلام مسجوع كما تراه، وكذلك خطبه الطوال كلها. فأما قولهم إن السجع يدل على التكلف فإن المذموم هو التكلف الذي تظهر سماجته وتقله للسامعين، فأما التكلف المستحسن فإي عيب فيه؟ ألا ترى أن الشعر نفسه لا بد فيه من تكلف إقامة الوزن، وليس لطاعن ان يطعن <sup>(١)</sup> فيه بذلك وأما قوله عليه الصلاة والسلام، لمن استتكر حكمه في الجنين بغرة وقال : أدي <sup>(٢)</sup> من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استهل، ومثل هذا يَطلُّ؟ اسجعاً - كسجع الكهان فأنا انكر عليه السجع الذي يسجع الكهان أمثاله ليموهوا به على الناس، وهو يريد ان يؤكد تحريم العمل بأقوال الكهان، والخضوع لكلامهم وأحكامهم) والامثلة كثيرة على شيوع السجع في الخطب.

#### ٥. القياس المضمّر

يكثر القياس المضمّر في اسلوب الخطبة. وهو قياس حذفته احدى مقدمتيه مثل: هذا الرجل مجد فهو ناجح حذفته المقدمة الكبرى (كل من يجد ينجح) ومثل كل المعادن تتمدد بالحرارة، فالنحاس يتمدد بالحرارة حذفته المقدمة الصغرى وهو (والنحاس معدن) ولعل السبب في شيوع هذا الأسلوب في الخطابة أن الخطيب يخشى أن يناقش السامعون المقدمة المحذوفة فيسقط أو يضعف دليله الخطابى، أو أنه يعتمد على ذكاء السامعين وبيدهتهم في إدراك المقدمة المحذوفة والربط بين المقدمتين، أو أنه يغالط السامعين بأن يوحي اليهم ويلزمهم بأنهم موقنون بصحة المقدمة المحذوفة، لأنها حقيقية يجب أن يسلموا بها، على أن المقدمة قد تحذف لأنها معلومة، فلا مدعاة لذكرها أو إثباتها، فالمستمع للخطبة يعلمها ويقدرها بداهة كأن نريد أن نستنتج ان فريق الكرة نال الكأس فيكفي أن نقول إنه تفوق على منافسه في اللعب لأنه لا فائدة في قولنا إن المتفوق ينال الكأس إذ أن ذلك معلوم بالعرف والعادة.

(١) ينظر: ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ١ ص ٤٢ .

(٢) ينظر: م. ن، ج ١، ص ٤٢ .

هذا القياس المضمّر أصلح للخطابة كما قرر أرسطو في قوله (لاشك ان المنهج في الخطابة يستند على الأدلة والدليل برهنة، لأننا إذا قبلنا دليلاً من الأدلة افترضنا أنه فرغ من البرهنة عليه، ومن ناحية اخرى البرهنة الخطابية هي القياس المضمّر، والقياس المضمّر هو ارقى الادلة وأفضلها، وهو نوع من القياس العام)<sup>(١)</sup> وقد قسم أرسطو الأسلوب الخطابي بالأسلوب المتصل والأسلوب المقطع، ولكن ذلك لا ينفي أن القياس الكامل قد يوجد في الخطبة، فمثلاً خطب أبو جعفر المنصور بعد قتله ابو مسلم الخراساني كما ذكرنا ذلك فقال (إن من نازعنا عروة هذا القميص اجزناه خبيّ هذا الغمد)<sup>(٢)</sup> وإن أبا مسلم قد بايعنا ، وبايع الناس لنا، على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه، ثم نكث بنا، فحكمتنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا) والقياس الكامل هنا هو: كل من غدر بنا قتله ابو مسلم. وأبو مسلم غدر بنا فهو يستحق القتل، ومن القياس المضمّر الذي حذف فيه المقدمة الكبرى، قول داود بن علي<sup>(٣)</sup> في بني أمية لما سقطت دولتهم (تباً تباً لبني حرب بن أمية وبني مروان، ركبوا الاثام، وظلموا الاتام، وانتهكوا المحارم وغشوا الجرائم، فأتاهم الله ببياتاً وهم نائمون)<sup>(٤)</sup> فالقياس هنا عصوا الله فاهلكهم. والمقدمة الكبرى (كل من عصى الله اهلكه) محذوفة لأنها مفهومة معلومة .

(١) ينظر : أرسطو، الخطابة الترجمة العربية القديمة ، تحقيق : عبد الرحمن بدوي ، دار القلم ، (بيروت، ١٩٧٩م) ص ٩٤ و ٢٠٧ و ٢١٢ .

(٢) ينظر : الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٩ ص ١٢٦ .

(٣) داود بن علي : هو داود بن علي بن عبد الله بن عباس ويكنى ابا سليمان وهو من خطباء بني هاشم ، وكان أنطق الناس وأجودهم ارتجالاً واقتضاباً للقول ويقال انه لم يتقدم في تحبير خطبة ، وله كلام كثير محفوظ وقال ابن قتيبة في المعارف ص ١٦٣ عند ذكر عمومة ابو العباس السفاح فأما داود فكان خطيباً جميلاً يكنى أبا سليمان وولي مكة والمدينة لابي العباس وأدرك من دولتهم ثمانية أشهر وتوفي سنة ١٣٣هـ (ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين ، ج ٢ ص ٢٤٥ ، اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٤٢)

(٤) ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٩، ص ٣٠٧. أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، ج ٣، ص ٩ رقم ٢.

## المبحث الثالث

### الارتجال والاعداد

الارتجال<sup>(١)</sup> : هو التدفق بالكلام عفو الخاطر من غير اعداد وقد كان ميسوراً وطبيعياً عند العرب، إذ أن اكثر خطبهم كانت عن بديهة وارتجال وكأنها الهام، أما اليوم فهو نادر في الامم كلها لأن الخطيب العصري، لا يقدر أن يخطب في موضوع يجهره، فإن كان على علم به لكثرة ما فكر فيه أو قرأ عنه، أو سمع به فإنه كالمُعَدِّ له، وإن كان خالي الذهن عن الموضوع عجز عن الاسترسال فيه خطيباً، فالارتجال الفكرة يكاد يكون مستحيلاً، وارتجال التعبير عن فكرة مدروسة ليس كثيراً: فالارتجال آفة الخطابة لأنه يلقي المعنى دون أن ينضج بالتفكير، وليست الخطابة اليوم -كما كانت في الزمن القديم -كلاماً يُلقَى من وحي الفطرة، بل هي اليوم فن له قواعده وأصوله، فمن واجب الخطيب أن يدرس موضوعه ويعدّه، أو يرسم معالمه وطريقة تناوله ثم يرتجل، ومما يساعده على الارتجال أن يكون جريء القلب، عزيز الاطلاع، سريع البديهة، حاضر الذهن ثريا باللغة، واثقاً بنفسه وبتوقيفه. ولقد يضطر الخطيب إلى الارتجال اضطراراً، كأن يكون في حفل ويدعى فجاءة الى الكلام، أو في جمع ويحدث حدث يستدعي منه المقال او يكون قد أعد خطبته ولكن حدث ما أنساه بعضها فيرتجل وكان الخطبة في ذاكرته.

ومن مزاياه فوق ذلك أنه يعين الخطيب على تغيير خطبته مطابقة لما يجد من أمور، لأنه إن تقيد بما أعده وحفظه أفلتت منه فرص كثيرة من الخير أن ينتهزها، وقيد نفسه بمتابعة تفكيره هو لا تفكير السامعين، على أن بعض الخطب لا يلائمه إلا الارتجال، فحيثما كانت إثارة واستمالة وعاطفة متدفقة، كان الارتجال وسيلة الخطيب فالخطبة الحربية في الميدان والخطبة الدينية الواعظة، والناحية التأثيرية من الخطبة القضائية والسياسية وخطب التهئة والترحيب، هذه كلها يجب ان تكون مرتجلة لا

(١) ينظر: الدكتور أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة، صص ١٩٧-١٩٨.

معدة لأن الإعداد يضعف تأثيرها، ويحول بين الخطيب والتدفق، ويغله عن الاستغلال الظروف الطارئة ومتابعة نفسية السامعين .

الإعداد : وللإعداد مزايا، لأن الأساليب المرتجلة أقل بهاء ورونقاً من المعدّة، أما الأفكار المرتجلة فإنها فجة مبتسرة إذا قيست بالأفكار المدروسة الناضجة المختمّرة ثم إن ظهور الخطيب أمام الجمع بمظهر المجازف الذي لم يُعد القول اعتداد النفس، واستهانة بالحاضرين، وتبجح بعدم الاهتمام، ودعوى أن خاطر الخطيب أسرع من خواطر الناس، وهذه كلها صفات لا ترضيها الجماعات ولقد يعسر على المرتجل تفكيراً وتعبيراً أن يعالج الموضوع وأن يصل منه إلى نتيجة فهو كساع إلى الهيجا بغير سلاح، أو كهائم لا يعرف وجهته، ولا المسالك إليها، ويرتل الكلام وليس فيه سوى الهديان من حشو الخطيب، وكان كثير من البلغاء يعدون خطبهم ويهدبونها ويتمرنون على إلقائها، هكذا يجب أن يتهيأ الخطيب للخطبة قبل فترة، وعليه أن يتدرب ويتمرن ولذلك كان صاحب الخطب، أو صانع الخطب قوياً في القانون والبلاغة والتحرير فيكتب الخطبة للمتقاضين، وهم يحفظونها عن ظهر قلب ليفرغوها من ادمعتهم امام القضاة<sup>(١)</sup>، وكان الارتجال في الحياة العربية الجاهلية أكثر شيوعاً من الإعداد أو أكثر من ارتجال العصور اللاحقة، والجاحظ (عنده أن البلاغة هي الخطابة أو أن الخطابة في الأقل أكبر مظهر من مظاهرها) ويثبت الفضل للعرب في الارتجال وقلة المعاناة، وينسب إلى غيرهم التحضير والاعداد، ولكننا نخالفه في أن يشمل هذا الحكم الحياة الإسلامية فإن الاعداد فيها كان أكثر شيوعاً من الارتجال وقد كان واصل بن عطاء يرتجل وغيره يحضر للخطبة، وقد حدث عمر بن الخطاب رضي الله عنه الناس عن السقيفة فيما بعد وجاء في حديثه أنه كان يعد كلاماً ليقوله في الجمع أو أنه كان يعد مقالة<sup>(٢)</sup> قد اعجبته يريد أن يقولها قبل ابي بكر الصديق

(١) ينظر : الدكتور ابراهيم سلامة ، تاريخ البلاغة والنقد ، ص ١٤ .

(٢) ينظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ٣٣٩ .

رضي الله عنه، والإعداد في الشعر وفي الكتابة سمة للانتاج البليغ في كثير من الأحيان، والناس لا يسألون عن هذا الانتاج كم يوم تم، وانما يُعجبون به ويمتدحون صاحبه، وما من أحد يسأل اليوم: كم ساعة أو يوماً كان يقضيها المنتبي أو شوقي في نظم القصيدة أو علي بن ابي طالب عليه السلام في تنسيق الخطبة او الجاحظ والمنفلوطي في تحبير المقالة ، قرب بيت منقح خير من ألف، ورب سطر مجيد خير من كتاب. وإذا كان الارتجال ضرورياً في بعض الخطب فإن الاعداد ضروري في بعضها الآخر على تفاوت في طريقتة والحاجة اليه، فالخطب السياسية لا مندوحة من إعدادها، وأي خطيب سياسي لا يعد خطبته ايجاداً وتسيقاً فالخفاق نصيبه، على أن بعض الخطب السياسية يعوزها الإعداد ايجاداً وتسيقاً وتيسيراً، لحاجتها الى دقة التعبير ووزن الألفاظ كخطب المعاهدات وبعض خطب المؤتمرات الدولية فهذه تعدّ إعداداً كاملاً. والناحية التطبيقية على القانون في الخطبة القضائية - لا بد من إعدادها إعداداً كاملاً أيضاً تتجلى فيه الثقافة القانونية والثقافة العامة.

### الجمع بينهما

من الخير إذاً أن يجمع الخطيب بين الإعداد والارتجال، فيعد موضوعة ثم لا يتقيد بما أعد، بل يتصرف كما تملئ عليه الظروف، وحينئذ تمدّه ذاكرته بما قد أعدّه وتسعفه بديهته بالجديد الذي لم يعده، وهناك طرق<sup>(١)</sup> شتى للخطباء في اعداد خطبهم ولتكون ملائمة لميلهم واستعدادهم وتجاربهم فمنهم من يكتبها وينقحها كأنها مقال، او بحث ثم يستظهرها، ومنهم من ينطق بالعبارات كأنه يملئ، ثم يقيد بعد ذلك، ومنهم من يستعد في تفكير صامت كأنه يسمع صوتاً من باطنه، ومنهم من يعد جالساً، ومن يعد واقفاً او متمشياً وخير للخطيب الذي أعد خطبته كتابة أو نطقاً ان يخط ما تجود به قريحته ثم يتأنق في تهذيبها وهو يبيضاها. وربما لا يحتاج الخطيب الى كتابة خطبته بعد التفكير فيها وتنسيقها بل يكفي بتقيد عناصرها، إن كان من ذوي البديهة

(١) ينظر: الدكتور أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة، ص ص ١٩٧-٢٠٥.

الحاضرة والمرانة. وخير طريقة للاعداد، ان الخطيب يُعدُّ خُطْبَتَه ان كانت مما يحتاج الى اعداد اعداداً كاملاً ثم يتركها ويرتحل، أو يضعها أمامه مكتوبة، ويكتفي باللمح الخاطف بحيث يستوعب الصفحة في نظرة دون أن يشعر الجمهور بأنه يلمح لأن الموضوع ما دام واضحاً في ذهنه ومدروساً، فإنه ينبع من عقله الباطن دون عناء ولكنه في طريقة اللوح هذه يكون أكثر وضوحاً وأسرع تبعاً وفيضاً.